مقياس: النقد الأدبي العربي الحديث

السنة الثانية ليسانس (دراسات أدبية/ دراسات نقدية)

المحاضرة الثانية: مدخل إلى النقد الأدبي الحديث (عوامل النهضة العربية الحديثة)

تمهيد:

منذ سقوط بغداد على يد المغول سنة 656هـ (1258م)، والأدب العربي ونقده يشهدان تراجعا على مدى الأحقاب المتتابعة، وعم الضعف الحياة الأدبية بفنونها المختلفة، ضمن ذلك حاولت فئة من المفكرين والعلماء إيجاد حل لهذا الإشكال الذي مس الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، فكانت عوامل النمو الأدبي والنقدي في البلاد العربية كثيرة، منها ما ارتبط بها ومنها ما استمد من ثقافات وحضارات أجنبية، وهذا ما يعرف بالنهضة العربية في العصر الحديث، ويعد احتكاك الشرق بالغرب أهم مقدمات النهضة وأشدها تأثيرا، وقد جرى هذا الاحتكاك بنوع خاص في لبنان ومصر دون سائر البلاد العربية.

- عوامل النهضة الأدبية الحديثة ومظاهرها:

يتفق الدارسون على عد حملة نابليون على مصر سنة 1798م حدثا يؤرخ لبداية عصر النهضة العربية الحديثة؛ وقد أحدثت حملة نابليون هزة عنيفة لمصر أيقظتها من سباتها الطويل؛ فكانت المحرك الذي بعث إحساس المجتمع إلى الشعور بالحاجة الماسة إلى ضرورة الأخذ بأساليب حضارية ملائمة تواكب متطلبات العصر، وتساعده على حفظ كيانه العرقي والحضاري، وأسهم في ذلك عوامل عدة، أهمها:

1- الطباعة:

الطباعة من أكبر وسائل نشر المعارف والعلوم، وقد اخترعت في القرن الخامس عشر ميلادي، وأول مطبعة بالحروف العربية ظهرت ببلدة 'فانو' بإيطاليا سنة 1514م، ثم انتشرت المطابع العربية في أوروبا.

أما في البلاد العربية؛ فأقدم مطبعة كانت في الشام وهي مطبعة (مار يوحنا) التي أنشئت سنة 1732م، ثم مطبعة (القديس جاو رجيوس) أنشئت في بيروت سنة 1753م، ولم يكن لهاتين المطبعتين أثر يذكر في نشر الثقافة العربية ولا في النهضة الحديثة؛ التي ارتبطت بمصر أولا؛ فحين عاد نابليون إلى فرنسا، خلف بمصر المطبعة التي أحضرها معه سنة 1798م، وبفضلها اكتسب المصريون خبرة في فن الطباعة، ثم أنشأ 'محمد علي' (مطبعة بولاق) سنة 1822م، وبعدها أنشئت المطبعة الأمريكية ببيروت سنة 1834م، ومطبعة الآباء اليسوعيين سنة 1848م ببيروت كذلك.

وقد أدت هذه المطابع دورا كبيرا في نشر التراث العربي، كما فتحت الباب أمام المفكرين والأدباء لنشر إنتاجاتهم.

2- الصحافة:

الصحافة من أسس النهضة الأدبية الحديثة، وعامل من أهم العوامل في مقاومة اللغة العامية، وانتشار اللغة الفصحى، ومجال واسع لنشر الأبحاث والدراسات الأدبية والاجتماعية والسياسية والتاريخية.

وتعد الطباعة من أهم أسباب نشأة الصحافة بأشكالها وفنونها المختلفة، وكانت مصر المهد الأول للصحافة العربية؛ فقد أنشئت صحيفة (الوقائع المصرية) سنة 1828م؛ وهي الجريدة الرسمية في عهد 'محمد علي'؛ وكانت تنشر الأخبار باللغتين العربية والتركية، ثم باللغة العربية فقط، وكان يشرف على تحريرها الشيخ 'حسن العطار' شيخ الأزهر.

وفي سنة 1855م أنشأ 'رزق الله حسون الحلبي' في القسطنطينية جريدة أسبوعية سياسية سماها (مرآة الأحوال)، ثم أنشأ 'إسكندر شلهوب' جريدة (السلطنة) في الأستانة سنة 1857م، و'خليل الخوري' جريدة (حديقة الأخبار) في بيروت سنة 1858م، و'أحمد فارس الشدياق' جريدة (الجوانب) سنة 1860م في إسطنبول؛ وهي جريدة سياسية أسبوعية اشتهرت وانتشرت في جميع الأقطار العربية، وأنشأ المعلم 'بطرس البستاني' جريدة (نفير سوريا) سنة 1860م، وفي سنة 1870م أنشأ الآباء اليسوعيون جريدة (البشير)، وجمعية الفنون الإسلامية جريدة (ثمرات الفنون) في بيروت سنة 1875م، وأنشأ سليم وبشارة تقلا اللبنانيان جريدة (الأهرام) في الإسكندرية سنة 1875م، وتوالى صدور الصحف والمجلات في مختلف الأقطار العربية.

وإلى جانب الصحف عرفت البلاد العربية شيئا فشيئا نهضة في إنشاء المجلات؛ فظهرت مجلة (اليعسوب) في مصر سنة 1865م وهي أقدم المجلات ظهورا، ومجلة (الجنان) في بيروت سنة 1870م، و(المقتطف) سنة 1876م في بيروت ثم انتقلت إلى مصر سنة 1886م، ومجلة (الهلال) في القاهرة سنة 1892م، ومجلة (الضياء)، وغيرها مما كان له انتشار وفائدة.

وقد أدت الصحافة دورا بالغ الأهمية في النهضة والتوعية القومية، كما نقلت آثار الغرب، ووسعت أساليب الكتابة والإنشاء، وبسطت اللغة وخلصتها من التعقيد والتكلف.

وليس أدل على ذلك من إنشاء جريدة (روضة المدارس) سنة 1870م للنهوض باللغة العربية، وإحياء آدابها، ونشر المعارف الحديثة، وقد اشترك في تحريرها طائفة من أدباء ذلك العصر ومفكريه؛ من أمثال 'علي مبارك' و'حسين المرصفي' و'عبد الله فكري'...، وكانت تنشر مؤلفات هؤلاء الأساتذة فصلا فصلا؛ كنشرها كتاب (الوسيلة الأدبية) للشيخ حسين المرصفي، وكتاب (القول السديد في الاجتهاد والتجديد) لرفاعة الطهطاوي.

وقد أتاحت الصحافة في ذلك العهد بصفة عامة الفرصة لظهور جيل من الكتاب مثلوا نماذج للكتابة الفنية فكانوا روادا للفكر والشعر وفن المقالة... في الأدب الحديث؛ من أمثال محمد عبده ومحمود سلمي البارودي، وعلي مظهر وإبراهيم المويلحي وسليم نقاش وأديب إسحاق، وغيرهم.

هكذا كانت الصحافة من أهم عوامل النهضة؛ إذ أسهمت في نشر وازدهار المعارف والعلوم والفنون بما كانت تنشره من بحوث ومقالات، ارتفعت بالذوق الفني ونشرت الثقافة بين الأفراد، وربطت الأقطار العربية ببعضها البعض.

3- المدارس والمكتبات:

كان للمدارس الفضل الأكبر في ترقية البلاد العربية ونشر العلم فيها، وقد تعددت في جميع الأقطار العربية؛ ففي لبنان كانت المدارس على فرعين: أجنبية ووطنية؛ ومن المدارس الأجنبية مدرسة (غزير) التي أنشأها الآباء اليسوعيون سنة 1847م، ثم الجامعة الأمريكية سنة 1866م، والجامعة اليسوعية سنة 1874م، أما المدارس الوطنية فمن أشهرها (المدرسة الوطنية) التي أنشأها المعلم 'بطرس البستاني' سنة 1863م، و(مدرسة الحكمة) للمطران 'يوسف الدبس' سنة 1865م، والكلية العثمانية الإسلامية سنة 1908م.

أما في مصر فكان التعليم قبل 'محمد علي' محصورا في الأزهر والكتاتيب، وقد استعان 'محمد علي' في بداية نهضته بعلماء الأزهر وكتبهم في مدارسه الحديثة التي كان التعليم فيها مجانيا.

وازدهرت المدارس ازدهارا كبيرا في عهد 'إسماعيل'؛ الذي أنشأ مدرسة (الإدارة) – وقد سميت فيما بعد مدرسة الحقوق–، ومدرسة (المعلمين)، ومدرسة (الفنون والصناعات)، وفي عهده أنشئت أول مدرسة للبنات (مدرسة السيوفية) سنة 1873م؛ إذ شكل تعليم المرأة دعامة متينة في النهضة الاجتماعية والأدبية.

ومن المدارس التي أنشئت في عهد 'إسماعيل'، وكان لها أكبر الفضل في نهضة اللغة العربية والأدب مدرسة (دار العلوم)؛ التي افتتحت سنة 1871م، ثم أنشئت مدارس ابتدائية وثانوية عديدة، وفي سنة 1906م أنشئت الجامعة المصرية.

– إلى جانب ازدهار التعليم وانتشار المدارس، انتشرت المكتبات التي تعد إحدى أهم سمات الثقافة العربية، وقد أسهمت المساجد والمدارس والجمعيات والمعاهد والجامعات في إنشاء المكتبات الخاصة والعامة؛ فارتفع مستوى الوعي وترسخ الانتماء للثقافة والتراث العربي.

والمكتبات من أهم عوامل التقدم؛ إذ فتحت أمام المفكرين والأدباء أبواب الحوار والاطلاع، ووفرت لهم وسائل العمل العلمي الصحيح، ومن أشهر المكتبات العربية: دار الكتب بمصر أنشئت في عهد 'محمد علي'، والمكتبة الظاهرية بدمشق أنشئت سنة 1878م، والمكتبة الأزهرية بمصر سنة 1879م، والمكتبة الشرقية ببيروت سنة 1880م، وغيرها.

4- الترجمة:

نشطت حركة النقل والترجمة في عصر النهضة؛ فاهتم العلماء والأدباء بنقل التراث العالمي إلى اللغة العربية، كما اهتموا بنقل بعض الآثار العربية إلى اللغات الأجنبية، وكان لهذه الحركة أشد الأثر على توسيع الآفاق أمام كتاب العرب، وعلى اطلاع العالم على ما للعرب من تراث فكري وأدبي، ومن رواد هذه الحركة القس 'جبرائيل الصهيوني' الذي نقل إلى اللاتينية كتاب (نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والآفاق) للمسعودي، و'إبراهيم الحاقلاني' الذي درّس العربية في جامعة فرنسية، ودعاه الكردينال ريشليو (ترجمان البلاط)؛ لأنه ترجم له عددا من الكتب العربية، و'يوسف سمعان السمعاني' الذي كان مترجما للكتب العربية بمكتبة الفاتيكان.

أما حركة التعريب ونقل الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية؛ فقد انتشرت في لبنان كما انتشرت في مصر، وقد شجعها محمد علي الذي اهتم اهتماما بالغا بالترجمة وكان

يشرف بنفسه عليها؛ حتى إنه كان يحول دون ترجمة أي كتاب لم ينل استحسانه، ويهدي ما يعجب به منها إلى المكتبات الكبرى وإلى الملوك والرؤساء، كما أنشئت في عهده مدرسة (الإدارة والألسن) سنة 1836م، وعهد بالإشراف عليها لرفاعة الطهطاوي؛ الذي كان يشرف على مراجعة الكتب التي كان يترجمها تلاميذ المدرسة، ويتولى إصلاحها.

وقد أنشئت مدارس لتعليم الترجمة في أقطار عربية عدة، وأتقنت اللغات الأجنبية؛ فترجمت الكثير من الكتب العلمية والأدبية إلى اللغة العربية، وانعكس هذا الثراء العلمي والمعرفي على الفكر وفنون الأدب؛ فظهرت المقالة الحديثة والقصة والمسرحية.

وفي عهد 'اسماعيل' نشطت حركة المسرح العربي، وبعدما بنيت (دار الأوبرا الخديوية) راح الأدباء ينقلون المسرحيات العالمية؛ فترجم 'أديب إسحاق' رواية (أندروماك) لراسين، وترجم غيرها، وترجم الشيخ 'نجيب الحداد' عدة مسرحيات فرنسية.

واشتدت حركة الترجمة والتعريب بعد الحرب العالمية الثانية، حتى حفلت مكتبتنا العربية بأشهر الكتب العالمية في الفكر والفلسفة والتاريخ والاقتصاد والأدب...؛ وقد أسهمت هذه المشاركة العلمية والفكرية في توجيه العقل العربي نحو عصر جديد في الفكر والأدب.

كما نشير هنا إلى أثر البعثات العلمية في حركة التعليم والترجمة؛ وكان أدت هذه البعثات دورا كبيرا عدّ أهم وأول دعائم النهضة الحديثة، وقد بدأت في مصر في عهد 'محمد علي' الذي أرسل سنة 1826م بعثة علمية إلى فرنسا عدتها أربعة وأربعون طالبا؛ تخصصوا في شتى العلوم والفنون: من حقوق وعلوم سياسية وهندسة حربية وطب وزراعة وكيمياء...وغيرها.

وقد أرسل 'محمد علي' إحدى عشر بعثة آخرها سنة 1847م، وكان شديد العناية بأعضاء البعثات؛ يتقصى أخبارهم ويشرف على دراستهم، ويكتب لهم رسائل يحثهم فيها على الاجتهاد والعمل ويذكرهم بدورهم المهم في النهضة العلمية، التي كان لهم

دور مهم في تحقيقها، وكان لهم الفضل في إحياء اللغة وجعلها مسايرة للعلم الحديث، بما ترجموه من كتب وأدخلوه من مصطلحات علمية، وبما ألفوه في شتى فروع العلم.

كما اتصل لبنان بالغرب في عهد فخر الدين (1572- 1635م)، وجرت منذ ذلك الحين حركة البعثات الأوروبية إلى الشرق بواسطة الإرساليات، وتأسست في روما وباريس وغيرهما من كبريات المدن الأوروبية مدارس لتعليم الشرقيين، ولا سيما اللبنانيين منهم، وقد تخرج من تلك المدارس عدد كبير من أرباب العلم والثقافة، وكان من أبحاثهم في آثار الشرقيين حافز لعلماء الغرب حفزهم على دراسة أدب الشرق ونتاج عقله، وكان من ذلك حركة الاستشراق التي لها فضل على النهضة الحديثة التي وجهت الباحثين شطر الدراسات العلمية والأخذ بأساليب البحث العلمي.

5- الاستشراق:

الاستشراق هو اتجاه عام من الغرب لدراسة البنية الذهنية والنفسية والروحية للشرق؛ عبر إتقان لغته الحاملة لفكر شعوبه وعواطفهم وقيمهم ومعتقداتهم، التي تجسدت عبر التاريخ في آدابهم وثقافتهم وتاريخهم، وعمرانهم ونظمهم الاجتماعية وأنماط اقتصادهم.

وقد حاول المستشرقون تغليف حقيقة دوافعهم وتمريرها بمزاعم النزعة الإنسانية التي تحتم على الغرب مساعدة الشرق، ولكن هدف الاستشراق هو إعادة خوض الحروب الصليبية بأسلوب أكثر عقلانية؛ بناء على معرفة معمقة بطبيعة الحياة والتاريخ الشرقي، وعليه رسم الخطط والوسائل العلمية والعملية للحركة الاستعمارية الحديثة.

وقد قامت الحركة الاستشراقية بفضل جهود جمعيات وتنظيمات نصرانية وعسكرية رسمية أنشأت مدارس ومعاهد وجامعات استشراقية تمكنت من الاستحواذ على معظم التراث العربي ومخطوطاته، وحولته إلى المكتبات والمتاحف بالعواصم والجامعات الغربية بلندن وباريس وبرلين وغيرها.

ويعد الاستشراق من أكبر العوامل في إحياء الآداب العربية؛ من حيث اشتراك الأجانب أنفسهم في دراستها ونشر كتبها، وقد بدأ الأوروبيون في دراسة اللغة العربية وآدابها منذ القرن العاشر للميلاد، ولما كان القرن التاسع عشر اشتدت حركة الاستشراق؛ لقيام الحكومات الغربية بتأسيس مدارس تعلم لغات الشرق ليسهل عليها حكم مستعمراتها.

وللمستشرقين أخطاء كثيرة؛ يرجع بعضها إلى جهل بالمصطلحات العربية ومعانيها الصحيحة، إذ تضللهم هذه المصطلحات وتؤدي بهم إلى استنباطات فاسدة، وأحيانا يبالغون في التحليل والتأويل والتعليل.

وعلى الرغم من ذلك يبقى لهم فضل في التأثير والدفع الإيجابي لحركة النهضة العربية؛ إذ تفرغ المستشرقون للبحث، ومنحتهم أممهم المال والوقت، وتحت أيديهم المكاتب العامرة بالأبحاث وبالمخطوطات النادرة، وكلهم يعرف لغات عدة غربية وشرقية؛ فكان من الطبيعي أن تتسم آثارهم بسمات التحقيق والمثابرة، والاطلاع والموازنة، ومراجعة الأصول والمخطوطات، ووضع الفهارس، وغير ذلك مما كان مفقودا في الكتب العربية، وقد مهدوا السبيل أمام الباحثين بنشرهم المخطوطات الثمينة، واشتهروا بتحقيقاتهم اللغوية، وأبحاثهم في أصول اللغات وفقه اللغة والساميات، وباكتشافاتهم الأثرية في بلاد العرب.

ومن أشهر المستشرقين:

- 'دي ساسي' الفرنسي توفي سنة 1838م: منشئ الجمعية الآسيوية الفرنسية، ومن آثاره ترجمة لكليلة ودمنة، ومقامات الحريري، ورحلة عبد اللطيف البغدادي، وألفية بن مالك، والبردة، وغيرها.
- كاترمير (Quatremére) 1857م: وهو من تلاميذ دي ساسي، من أعماله: نقل تاريخ المماليك للمقريزي، وطبع مقدمة ابن خلدون بالعربية والفرنسية، وترجمة المعلقات السبع، وغيرها.

- وليم رايت (Wright) 1899م، وهو مستشرق انجليزي، من أعماله: ترجمة رحلة ابن جبير ونقدها، وترجمة كليلة ودمنة، ونشر كتاب الكامل للمبرد، وهو صاحب أبحاث الأدب السوري في دائرة المعارف البريطانية.
- مرجليوث: اكتسب شهرة كبيرة في البلاد العربية، من أعماله: نشر معجم الأدباء لياقوت الحموي، وحماسة البحتري، وترجمة فصول من التمدن الإسلامي لجرجي زيدان.
- ومن المستشرقين الألمان فريتاخ 1861م: تعلم على دي ساسي في باريس، واشتغل بالتدريس في جامعة بون، من أعماله: ترجمة ديوان الحماسة مع شرح التبريزي، وأمثال العرب، وأمثال الميداني ترجمة لاتينية، وطبع معجم البلدان لياقوت الحموي مع فهارس قيمة، وله معجم عربي لاتيني في أربعة أجزاء.

وغير هؤلاء من المستشرقين من بلدان أوروبية وأمريكية مختلفة، لهم باع طويل في نشر الكتب وتصحيحها وتحقيقها وترجمتها إلى لغاتهم.

6- الجمعيات العلمية والأدبية:

إذا كثرت الجمعيات العلمية في أمة دل ذلك على حيويتها ويقظتها، وقد تعددت الجمعيات العلمية والأدبية في البلاد العربية، وكانت من عوامل تقدم العلوم والثقافة؛ لأنها كانت تحمل المفكرين والأدباء على الاجتماع والحوار وتبادل الأفكار والآراء، وكانت تسهل لهم سبل الدرس والبحث، وقد نشأت أولا في لبنان؛ فظهرت في بيروت سنة 1847م (الجمعية السورية)، وكان من أعضائها الشيخ 'ناصيف اليازجي'، والمعلم 'بطرس البستاني'، ثم (الجمعية العلمية السورية) في بيروت أيضا سنة 1868م، وبعدها (المجمع العلمي الشرقي) في بيروت سنة 1882م، ومن أعضائه 'يعقوب صروف' و'إبراهيم اليازجي'.

أما مصر فأول جمعية علمية فيها ظهرت سنة 1798م على يد نابليون بونابرت؛ الذي أسس (المجمع العلمي) بهدف نقل الثقافة الفرنسية وعلومها إلى مصر، وبعده

ظهرت أول جمعية علمية مصرية سنة 1868م وهي (جمعية المعارف)؛ أسسها 'محمد باشا عارف' وكان لها دور مهم في نشر الثقافة عن طريق الترجمة والتأليف والنشر، وقد بلغ عدد أعضائها ستمائة وستين عضوا منهم: إبراهيم المويلحي، وأحمد فارس الشدياق، والشيخ حسونة النواوي، ومصطفى رياض، وغيرهم.

وفي سنة 1932م تأسس (المجمع الملكي للغة العربية) بالقاهرة، ثم تأسس (المجمع العلمي العربي) بدمشق، ثم (المجمع العلمي) ببغداد؛ وقد اهتمت هذه المجامع بالبحث في تنظيم الجهود وتحديد السبل الكفيلة بتطوير اللغة العربية وإثرائها بالمصطلحات وضبط المفاهيم، ومناقشة القضايا العلمية والأدبية والنقدية، وكل ما له شأن باللغة العربية.

وإلى جانب المجامع العلمية ظهرت الجمعيات الأدبية والفنية بفضل نشاط الأدباء والنقاد، وقد فتحت هذه الجمعيات آفاقا واسعة أمام المبدعين، وسمحت لهم بالاطلاع على المدارس والاتجاهات الفنية الحديثة.

هذه أهم عوامل النهضة العربية الحديثة، التي لم تثمر ثمرتها المرجوة إلا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر حين ظهرت طلائع الثورة العرابية في مصر، وانطلقت النهضة العربية العلمية والأدبية والنقدية الحديثة، وشقت طريقها إلى جانب العلوم والآداب العالمية.

مراجع:

- حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البوليسية، لبنان، دط، دت.
- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي 'الأدب الحديث'، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986م.

- عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط4، 1959م، ج1.
- عبد الحي دياب، التراث النقدي "قبل مدرسة الجيل الجديد"، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968م.